في الحديث عن هجرة اليهود السوفيات ـ من روسيا ايضاً، او على وجه التحديد من تلك الاجزاء من بولونيا التي كانت خاضعة، يومذاك، للحكم القيصري الروسي. وخلال السنوات التالية تبع «الطلائعيين» هؤلاء مهاجرون آخرون، الى ان توقفت الهجرة بعد فترة قصيرة، اثر الصعوبات المالية التي جابهتها، بحيث اضطر زعماء المستوطنين الى الاستنجاد بالبارون روتشيلد، اليهودي الفرنسي الثري، الذي وافق على بسط حمايته على تلك المستوطنات، وتعهّد تمويلها، وتحكّم بذلك في مصيرها، وتطورها، وتركيبها الاجتماعي، خلال فترة طويلة.

وفي الاطار العام، لم تكن تلك الحفنة من المهاجرين الى فلسطين الا نزراً يسيراً من موجة عارمة من الهجرة، شهدتها روسيا القيصرية ودول اوروبا الشرقية الوسطى خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي، واستمرت حتى نشوب الحرب العالمية، وشملت ابناء شعوب تلك البلدان كافة. وكانت هذه الهجرة بدأت في روسيا والمناطق الخاصة لحكمها، حيث تمركزت اكثرية اليهود، خلال تلك الفترة، على ارضية تغيّرات اقتصادية هامّة أدت الى ضعضعة البنية الاقتصادية والاجتماعية، ودفعت الملايين الى الهجرة. وكان بين اولئك المهاجرين نحو مليونين من المهاجرين اليهود، توجهوا بأكثريتهم الى اميركا الشمالية، وبعضهم الى الجنوبية، وبلدان أخرى، عدا عمّا يقدر بخمسين الفاً منهم ـ اي نحو نصف بالمئة ـ توجهوا الى فلسطين.

وانطلاقاً من هذا الواقع، وبعد ان بان واضحاً للعيان ان التخطيط على اساس هجرة يهودية مكثفة الى فلسطين ليس له ما يبرره، اذ ان الاكثرية الساحقة من المهاجرين رفضت، ببساطة، الاتجاه الى هناك، بينما لم تستطع القلة التي قامت بذلك من تحقيق «انجاز» يذكر، طرأ على بال زعماء المستوطنين في فلسطين ان يتجهوا الى جلب هجرة يهودية «رخيصة» الى هناك. وفي اوائل هذا القرن، ارسلوا ممثلاً عنهم الى يهود اليمن، حاملاً معه رسائل مزوّرة، مدعياً بأنها كتبت من قبل حاخامي اليهود في فلسطين، لحمل يهود اليمن، المعروفين بتديّنهم، على الهجرة الى «ارض ـ اسرائيل». وتمكّن الصهيونيون بذلك من حمل نحو الفين من يهود ذلك البلد على الهجرة الى فلسطين، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، آملين في ان يستطيع اولئك مدّ جذورهم في البلد، نظراً الى «احتياجاتهم المادية القليلة»، وبالتالي منافسة الفلاح العربي بصورة اعمق من تلك التي يقوم بها اليهود الاشكناز، «المدللون». ولكن حتى هذا لم يجد نفعاً. فيهود اليمن لم يستطيعوا ان «ينافسوا الفلاح العربي، ولا غيره، بل بقوا فقراء، مسحوقين ومضطهدين بين «أخوتهم» الاشكناز. وحتى بعد مرور اكثر من نصف قرن على تهجير اولئك اليهود الى فلسطين، وعلى الرغم من «النعَم» الاشكنازية التي «أُغدقت» عليهم، بقي اولئك في اسفل السلّم الاجتماعي، فقراً وتخلّفاً؛ الى درجة اعتاد معها دافيد بن ـ غوريون، عندما كان رئيساً لحكومة اسرائيل، على القول: «يوماً ما سيكون لدينا رئيس اركان يمني»، على اعتبار انه عندما يصل اليهود اليمنيون في اسرائيل الى ذلك المدى من التقدم الذي يمكن معه ان يخرج من بينهم رئيس اركان للجيش الاسرائيلي، تكون اسرائيل قد وصلت الى قمّة تطورها.

غشّ وتضليل ومؤمرات وتهجير

بقيت ملامح الهجرة اليهودية الى فلسطين، قبل الحرب العالمية الاولى والمسارات التي تحكمت فيها، كما اشرنا اليها باختصار، هي السائدة والمسيطرة على حركة الهجرة تلك، منذ ذلك الوقت وحتى اليوم، على ما رافقها من غرابة وشذوذ.

ان من ينظر الى اسرائيل، اليوم، بوضعها الحالي، يكاد يعتقد، لاول وهلة، أنها دولة «طبيعية» قائمة على اسس سليمة، وتشكل حلاً لما سمّي «المسألة اليهودية». الاّ ان نظرة اعمق تظهر ان